الفصل الثالث

البابليون وعلم الجغرافيا

اهتم البابليون بالتجارة مع البلدان المجاورة لهم، فوصلوا معظم أجزاء شبه جزيرة العرب، وأقصى الهند وشمال أفريقية فعبروا مضيق جبل طارق. لذا كثرت أسفارهم، مما جعلهم يدرسون عن كثب حركة النجوم، لأنها من المصادر الهامة التي يستعينون بها على معرفة الجهات الأربع والمسالك الصحراوية.

تفنن علماء بابل بمعرفة البروج، وهي منازل الشمس على مدار السنة، ويظهر ذلك مما تناقله المؤرخون للعلوم في العصر الحديث، والجدير بالذكر أن الكلمة المستخدمة في اللغة اللاتينية التي تعني برج هي (Sigma) أما في اللغة الإنجليزية فهي (Signa) ومصدرهما اللفظ اليوناني (Sameia).

قام البابليون بدراسة جيدة عن علم الفلك حيث ربطوا علم الجغرافية بعلم الفلك لصلة بعضهما ببعض، ويظهر ذلك فيما ذكره كل من صدقوك وتيلر في كتابهما (الموجز في تاريخ العلوم) أن علماء بابل اهتموا في علم الفلك الذي له صلة وثيقة بعلم الجغرافية. ورسموا خريطة دقيقة لمنطقة البروج الاثنى عشر مما يدل على تمكنهم في هذا المجال، وقد عينوا الوقت الذي يأخذه كل كوكب في مداره المحدد له، كما حسبوا بكل ذكاء طول السنة الشمسية ٣٦٥يوما و١٥دقيقة و٤١ثانية. وهذه القيمة تكاد تكون قريبة من القيمة الحقيقية.

لايخفى على القارىء أن الحضارة البابلية كانت معاصرة للحضارة المصرية القديمة، وقد قامت على بقايا الحضارة السومرية في أرض العراق (مابين النهرين).

أبحر البابليون في كل من نهر دجلة والفرات حتى وصلوا الخليج العربي ولكنهم لم يتمادوا في الخليج لأنهم كانوا مشغولين في علم الفلك المرتبط تمام الارتباط بعلم التنجيم.

ويذكر شريف محمد شريف في كتابه (تطور الفكر الجغرافي) أن تاريخ الامبراطورية البابلية يرجع إلى نحو عام ٢١٠٠ قبل الميلاد. وكان حمورابي أعظم ملوك بابل بل قد يكون أعظم شخصيات التاريخ القديم، فقد وضع القانون الذي كفل بنظامه أعلى درجة من الحضارة للبابليين، ومع أن البابليين قد بنوا سفنا أبحروا بها نازلين في كل من نهر دجلة والفرات حتى البحر، فإنهم لم يتوغلوا في البحر بعيدا بل فضلوا الملاحة على طول السواحل المجاورة ولاشك أنهم يعرفون تمام المعرفة أن الملاحة في الخليج العربي تحتاج إلى معلومات متقدمة في ميدان علم الفلك الذي كان شغلهم الشاغل.

قسم البابليون اليوم إلى أربع وعشرين ساعة والساعة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية. وبقى هذا النظام مستخدما عبر التاريخ وأول من استفاد من هذا التقسيم كل من علماء الهنود واليونايين والرومانيين.

رسم البابليون خريطة لبلادهم منقوشة على لوح من الطين، توحي في عمق جغرافي، كما توجد أقدم خريطة عملها البابليون في متحف الساميات بجامعة هارفارد الأمريكية.

وأضاف شريف محمد شريف في كتابه آنف الذكر أن أول محاولة نقش الخرائط على ألواح من الطين قام بها البابليون الذين امتازوا بمقدرة جغرافية هائلة والتي مكنتهم من رسم عدد كبير من الخرائط. ولعل من أهم العوامل التي ساعدتهم في ذلك عنايتهم الفائقة النظير بعلمي الفلك والرياضيات، وتعج المكتبات العالمية وخاصة المتحف البريطاني بمجموعة من الخرائط المحفوظة لبلاد مابين النهرين.

ومما يؤخذ على علماء بابل في مجال علم الجغرافية أنهم تصوروا كوكب الأرض على شكل قفة مقلوبة، بينما أثبت كرويتها بطريقة علمية علماء العرب والمسلمين في القرن الثاني الهجري، وبقى تصور علماء العرب والمسلمين حيال كروية الأرض معتبرا عبر الأزمان كلها.

نعم بلغت المعرفة الجغرافية عند علماء بابل قمتها فقد كتبوا تصورا جغرافيا علميا لشبه جزيرة العرب وشمال أفريقية حتى مضيق جبل طارق.

لقد سيطر على البابليين اعتقاداتهم في الأساطير الخيالية التي ذكر بعضها

شريف محمد شريف في كتابه المذكور أعلاه ومنها:

١ ـ كان العالم في نظر البابليين كله داخل قبة السماء التي اعتقدوا أن لها أعمدة فيما وراء البحر. أما مركز الكون فقد زعموه واقعا عند منبع الفرات في جبال (طوروس).

٢ ـ اعتقد البابليون أن الأرض فجة غير ناضجة إذ جاء في أساطيرهم أن الأرض قفة مقلوبة طافية (القفة = قارب مستدير الشكل كان يصنع من نبات الحلفا والبردى ثم يُطلى بالقار وكان هذا النوع من القوارب يستعمل في بلاد النهرين منذ الأزل).

٣ ـ اعتقد البابليون أن الأرض تتكون من سبع طبقات.

٤ ـ اعتقد البابليون أن الشمس تختفي ليلا وخلف جبال في شمال الأرض.

٥ ـ اعتقد البابليون أن كل قطر أو مدينة إنما يرتبط حظه بصورة سمائه وما تحتويه من نجوم وكواكب تسيطر على حظوظ الناس في الحياة.

٦ ـ عرف البابليون من الكواكب عطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل، وهذه الكواكب في نظرهم هي القوة المسيطرة على حظوظ الناس.

٧ ـ استطاع البابليون تسجيل ظاهرة الخسوف والكسوف مع ملاحظة فترات كل منهما.

وخلاصة القول أن الكثير من الوثائق التي حصل عليها علماء الآثار المعاصرين توحي بأن علماء بابل كانوا على علم وبصيرة في علم الجغرافية، فلهم آراء ونظريات في هذا الميدان تدل على طول باعهم في ذلك فقد حددوا بالضبط موقع البلدان التي تعاملوا معها ودونوا معلومات دقيقة عن المسالك التي استخدموها بين هذه البلدان.